وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية

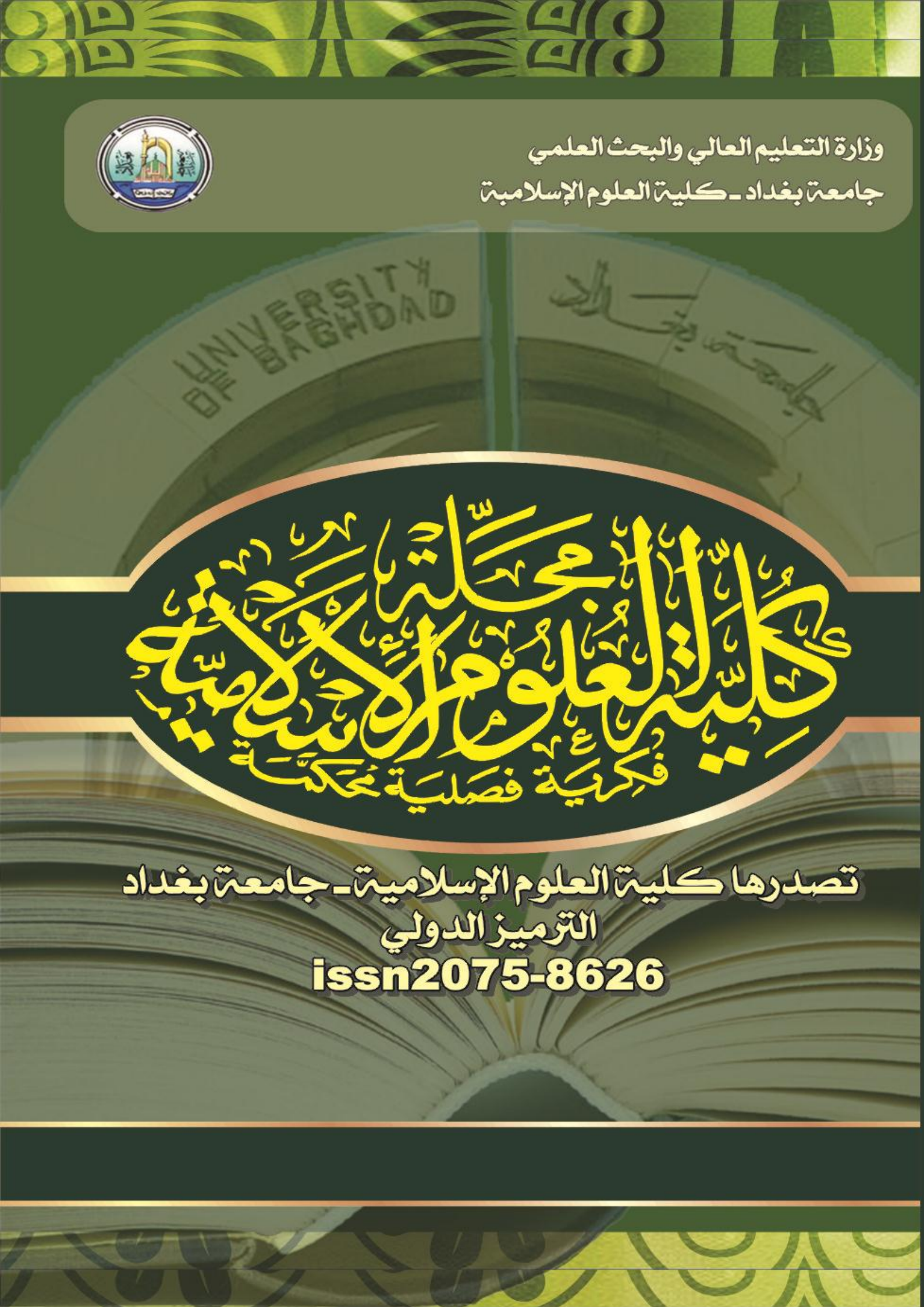

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية فصلية محكمة

تصدرها كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد
الترميز الدولي
issn2075-8626

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد ـ كلية العلوم الإسلامية

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية ـ فصلية ـ محكمة

تصدرها
كلية العلوم الإسلامية
جامعة بغداد

العدد (٣٢)
١٤٣٣هـ ـ ٣٠ كانون الاول ٢٠١٢م

الترميز الدولي : ISSN 2057-8626

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦م

قائمة المحتويات العدد ٣٢

الاحاديث التي استشهد بها الامام المزي	أ.م.د عبد الله كريم الناصري	٨
الروايات البصريات في كتب السنة دراسة تحليلة	د. شهد كريم فليح القيسي	١٢٥
لمحات من الحنق والطيش في الشعر الجاهلي	د.مظفر هاشم	١٨٩
التفسير بالراي عند المدرسة العقلانية دراسة صفية	د. عرفان رشيد شريف	٢٢٤
اهمية المنطق في دراسة العلوم الاسلامية	أ.م.د. رعد شمس الدين	٢٦٤
تسلية القران المبين للنبي (ص) خاتم المرسلين	م.حميد شاهر فرحان	٣١٢
الاختلاط ضوابطه وفوائده	أ.م.د احمد ختال	٣٤٠
دراسة في احاديث الصلاة دبر الدعاء	د.احمد نوري حسين	٣٦٥

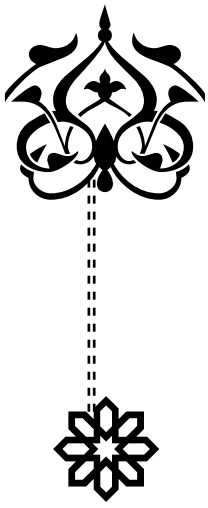

لمحات من الحنق و الطيش في الشعر الجاهلي

د.مظفر هاشم

توطئة

لقد تبلورت شخصية العربي في العصر الجاهلي عن بيئةٍ لا تعرف الرحمة، ومجتمع لا سطوة فيه، فلا سلطة تردع، ولا قانون يمنع، لذا نشأ العربي يومها يعتد بنفسه معتقدًا فيها السمو والسيادة، والقوة والعراقة، ناهيك عن حسن ظنِّه بقبيلته التي ما فتأت تنصره على من عاداه، وتعينه على من ظلمه، غير آبهة بالبراهين ولا آخذة بالأسباب، فأفراد القبيلة متضامنون متعاضدون، إنْ تعرض أحدهم لأي اعتداء هبّوا لنجدته هبَّة رجلٍ واحدٍ، وإنْ كان هو البادئ والمعتدي، ويجمل الشاعر أدهم بن أبي الزعراء الطائي هذه المواقف في قوله[1]:

وليسَ أخُونا عند شرٍّ نخافهُ ولا عندَ خيرٍ إنْ رجاهُ بواحدِ

إذا قيلَ مَنْ للمُعْضِلاتِ؟ أجابَهُ عظامُ اللهى مِنَّا طوالَ السواعدِ

وإذا تلكأت القبيلة في حماية أفرادها، فإنَّها تتعرض لأقسى اللَّوم، وأشدِّ العتاب، وهذا ما يبرر شكوى قريط بن أنيف من قومه، وتهكمه بهم، وحمله عليهم لضعفهم عن نجدته، وتخليهم عن نصرته، ومدح بني مازن الذين ينصرون أخاهم دون أن يعرفوا أنَّه مظلومٌ يستحق النصرة في قوله[2]:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيهِ طارُوا إليه زرافاتٍ ووحدانا

---

[1] / المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء : ٣٦.

[2] / ديوان الحماسة : رقم ١.

لا يسألونَ أخاهُمْ حينَ يندُبُهُمْ في النائباتِ على ما قالَ بُرْهَانا

لذا نجد العربي في الجاهلية يثور معتمدًا على أعوانه ولا يتبلد حسه هذا إزاء أي موقف يواجهه، بل على العكس هم سلاحه في الخطوب، وذخره عند الحاجة، ووفق هذه الرؤيا لم يعد يكترث للأخطاء التي يرتكبها ولا يبالي بالأفعال التي يقترفها، حتّى أصبح سريع الانفعال، عصبي المزاج، تثيره كلمة، وتهيجه إشارة، دون أنْ يحتسب لعواقب الأمور، فهو طاوع هياجه واستسلم لثورته، واستمرأ ذلك كله دون أن يفكر بالنتيجة، أو يأخذ بالمشورة، وتتجلى هذه الخصال في قول سعيد بن ناشب المازني مفتخرًا بنفسه[1]:

إذا هَمَّ لم تُرْدَعْ عزِيمَةُ همِّهِ ولم يأتِ ما يأتي من الأمرِ هائِبا

إذا همَّ ألقى بين عينيهِ عزْمهُ ونَكبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانِبا

ولم يسْتَشِرْ في رأيِهِ غيرَ نَفْسِهِ ولم يرضَ إلا قايمَ السيفِ صاحِبا

وفي خضم هذه التجاذبات النفسية من حدّة الطبع، وعنفوان التصرف، بدأ ينظر لشخصيته بنرجسية عالية دونها الآخرون، وليس أقل دلالة على ذلك كله من

[1] / المصدر نفسه : رقم ١٠.

قول عمرو بن كلثوم الذي يعلن في معلقته مجموعة من خصال العربي في الجاهلية التي تأثلت في شخصيته، وهي لا تخرج في بعض جوانبها عن إطار موضوعنا الحنق والطيش، حيث أخذا يحتلان حيزًا من هذه الشخصية[1]:

لَنا الدنيا ومنْ أضحى عليها ونبطشُ حينَ نبطشُ قادرِينا

نُسمَّى ظالمينَ وما ظُلمنا ولكنَّا سنبدأ ظالمِينا

ونَعدُو حينَ لا يُعدى علينا ونضربُ بالمَوَاسي من يَلِيْنا

---------- ----------

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهِلينا

وبعد هذا العرض المبسط، يمكننا القول: إنَّ الحنق والطيش سلوكان لمسنا شيئًا منهما في شخصية العربي في العصر الجاهلي، مما دفعنا لرصدهما والوقوف عليهما في الشعر الجاهلي، وهما يستحقان البحث والدراسة ولاسيما أنَّ شخصية العربي في المجتمع الجاهلي ثرةٌ بالخصال المتناقضة بحسب الضغوطات التي يقع

[1] / ديوانه : ١٠٠- ١٠١.

تحت طائلتها، وقبل الولوج في ثنايا الموضوع لا بد لنا من التعريف بالحنق والطيش لغة واصطلاحًا، لكي نتعرف على دلالتهما في المعاجم العربية، وما يمكن استنباطه من آثار مادية ومعنوية، ناهيك عن طبيعة استخدام الشعر الجاهلي لهما بغية الوصول لأرضية مشتركة نقيم عليها البحث.

الحنق لغة، الحاء والنون والقاف، هي أصل واحد وهو تضايق في الشيء، وإلى هذا يرجع الحنق في الغيظ؛ لأنه تضايق في الخلق من غير ندحة ولا انبساط[١]. وهو عند بعضهم "شدة الاغتياظ"[٢]، وهي أعلى درجات الغضب وأشد مراحله، ويصفه بعضهم بأنّه الحرارة التي يجدها الإنسان في ثوران دم قلبه[٣]، ويصور لقيط بن يعمر الأيادي بعضًا من ملامح المحنَّق في قصيدة ينذر فيها قومه من حنق كسرى، واصفًا ما كان عليه حال جيشه في قوله[٤]:

خُزْرًا عُيونُهُمْ كأنَّ لحظَهُمْ حَريقُ نارٍ تُرى منه السَّنا قِطعا

وتتجلى هذه الملامح في احمرار الوجه الناجم عن حرارة الجسم أيضًا، وهو ما نجده في غضب قوم عبس عند قتال قبيلة طيء وكان بينهم عداوة ودم، فقال عنترة في وصف حالهم يومها[٥]:

يَمْشونَ والمَاذيُ فَوْقَهمُ يتوقَدونَ تَوقُّدَ الفحمِ

ومن مظاهر الحنق أيضًا، الريق في الحلق، وهو ما رصده تأبط شرًا من

---

[١] / ينظر مقاييس اللغة : مادة (حنق).

[٢] / العين : مادة (حنق) ، لسان العرب : مادة (حنق).

[٣] / ينظر التوقيف على مهمات التعاريف : ٥٣٩.

[٤] / ديوانه : ٣٧.

[٥] / ديوانه : ٢٧٥.

حالتي رجلين مرّ بهما ومجموعة من الصعاليك[1]:

سَلَكُوا الطَّرِيقَ وَرِيقُهُمْ بِحُلُوقِهِمْ حَنَقًا، وكادتْ تستَمِرُّ بِجُنْدَبِ

وهو عند صاحب المصباح الغضب المحيط بالكبد، وهنا يصبح أشدّ الحنق[2]، وقيل: هو الغضب المكبوت الذي يخرج لموقف ما[3]، بل إنَّ بعضهم ربطه بالحقد؛ إذ يقولون: "أحنق الرجل" إذا حقد حقدًا لا ينحل[4]، وهنا تأخذ اللفظة بعدًا معنويًا، يقول المفضل النكري[5]:

تلاقيْنا بغينةَ ذي طريقٍ وبعضُهُم على بعضٍ حنيق

ويضيف صاحب التاج لملامح الحنق، اصطكاك الأسنان لتعبر عن قولهم: "حريق الناب صريفه غيظًا وحنقًا"[6].

مما تقدم يتضح لنا أنَّ لفظة الحنق في المعاجم العربية لا تكتفي بالمعنى المحدد لغويًا، بل تشير إلى جملة من الانفعالات تظهر على هيئة المحنَّق ولاسيما وجهه، بل تذهب الأمور أبعد من الحدود المعقولة أحيانًا، لذلك تظهر آثار نفسية نستشفها من ردود فعله إزاء الموقف الذي وقع لأجله الحنق، وهذا ما حمل قتيلة بنت النضر أن تلتمس لأبيها ـ وقيل لأخيها ـ العذر في مقاتلة النبي (صلّ الله عليه وسلّم) وكان أمر بقتله بعد أسره، وقد عاتبته بقولها[7]:

---

[1] / شعره : ٧٢

[2] / ينظر المصباح المنير : باب الحاء.

[3] / ينظر لسان العرب : مادة (حنق) ، القاموس المحيط : مادة (حنق).

[4] / القاموس المحيط : مادة (حنق).

[5] / ديوان الحماسة : رقم ٣٣٤.

[6] / تاج العروس : مادة (حنق)

[7] / السيرة النبوية : ٦٣٦.

ما كانَ ضرَّكَ لو مننتَ وربَّما منَّ الفتى وهو المغيظُ المحنق

فالحنق شعبة من الغضب، والغضب عند علماء النفس استعداد فطري إزاء فعل ما يدفعه في بعض المواقف إلى القيام بأفعال عنيفة لإزالة الضغوط المفروضة عليه نفسيًا وبدنيًا[1]. وعليه قد يتجذر الحنق في النفس حتى يصبح بمثابة الإرث، تحاول الأجيال الحفاظ عليه، وهو ما نستشفه من قول الحارث بن حلزة[2]:

فبَقَيْنا على الشَنأةِ تناميا جدودَ وعزةَ قعساء

أما الطيش لغة، فهو النزق والخفة[3]، ويرى الجوهري إذا غضب المرء وزال حلمه حمله على الخفة والطيش[4]، بل يرى أنّ الإنسان إذا وصف بالخفَة والطيش فإنّه فإنّه لا يتمالك، أي: لا يسيطر على نفسه ولا يضبط ردود فعله[5]، يقول النجاشي[6]:

ولستُ إذا شبَّ الحروب غُزاتها من الطيشِ ثورًا شاطَ في جاحم اللَّظى

وخلاصة القول: إنَّ الطيش، هو فقدان الإنسان للاتزان في اتخاذ الرأي الصائب، وعدم القدرة على تحديد القرار الناجع، مما يترتب على ذلك فعل غير منضبط سلوكيًا يوصله إلى التهور في الفعل.

---

[1] / أصول علم انفس : ١٢٦ ، علم النفس العام : ١٩٠.

[2] / ديوانه : ١١.

[3] / ينظر القاموس المحيط : مادة (طيش) ، تاج العروس : مادة (طيش) ، لسان العرب : مادة (طيش).

[4] / ينظر تاج العروس : مادة (خفف).

[5] / المصدر نفسه : مادة (ملك).

[6] / العين : مادة (طيش)

وعليه يمكن القول: إنَّ الحنق والطيش يكملان بعضهما، فعندما يقع الإنسان تحت طائلة ضغط ما يكون الأول ردة فعل نفسية داخلية، والثاني يصبح فعلاً غير منضبطٍ عقليًا، وهذا ما دفع صاحب التعاريف لأنْ يجعلهما من الأوساخ الدنيوية التي تبعد العبد عن الخالق[1].

ولغرض دراسة الحنق والطيش في الشعر الجاهلي لا بد لنا من أنْ نسلك مسلكًا يلم بأطراف الموضوع كافة، فيأخذ بالحسبان طبيعة الموقف، وغالبًا ما يكون استثنائيًا وطارئًا، وهو بلا ريب يختلف من حالة لأخرى، وهذه الخصوصية خصوصية الاختلاف على الرغم من كونها علامة فارقة، إلا أنّها تحدد بدورها ثقل الحنق على نفسية صاحبه، وحجم الطيش في ردة فعله، فضلاً عن مكانة المحنق في المجتمع، فالإنسان عندما يكتنفه الحنق ويمارس الطيش تتباين ردود أفعاله، وكذلك حدود أذاه، بحسب هذه المكانة، ولاسيما أنَّ لهذه المكانة حظوةً كبيرةً في المجتمع الجاهلي، ومن هذا المنطلق رأينا تناول الموضوع بحسب طبقات المجتمع الجاهلي المختلفة، كي تضعنا في الإطار الأوسع للحياة، وكذلك تعطينا الصورة الأشمل للواقع، مع الأخذ بالأسباب والدوافع أيضًا.

ونظرة عابرة لواقع المجتمع الجاهلي نجد العربي يومها منصهرًا ضمن واقع القبيلة وصراعها من أجل الوجود على الصعيد السياسي، فهي العنوان الأسمى والصورة الأبهى لذلك العصر، فضلا عن حركتها ومالها من تجاذبات على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، فالأول يمثل منظومة العلاقة بين مكونات المجتمع، والثاني يحدد مفهوم التعايش في إطار ذلك المجتمع، وبصرف النظر عن آليات التعامل، وحيثيات التفاعل، حرص العربي على تأدية ما عليه من حقوق

---

[1] / ينظر التوقيف على مهمات التعاريف : ٥٧٩.

وواجبات، وحسب العرف السائد، ووفق القوانين الدارجة يومها؛ وبالتأكيد إذا خرج عن ذلك فسيعرض نفسه للمساءلة والمحاسبة، وربما يتجاوز الأمر الحدود المعقولة، فيثير حنق وطيش الآخرين عليه، وهذه الصورة المبسطة تعكس حقيقة الواقع الذي عاشه الجاهلي يومها، ووفق هذه المعطيات تعامل العربي مع فئات المجتمع كافة، ولو بقدر متفاوت، ومن تلك الطبقات التي لعبت دورًا في حياة العربي الجاهلي:

أ - الملوك

يتشكل النظام السياسي في المجتمع الجاهلي من القبيلة، ويتسنم قمة الهرم فيها سيدٌ توثق بيده السلطة الدنيوية، ويطلق عليه الرئيس، وربّما يمارس الطقوس الدينية، فتخلع عليه الكهانة؛ ونتيجة لتمكنه من هذين الجانبين أصبحت قراراته قطعية غير قابله للمراجعة، بعدما توسّم الناس فيه الألوهية أيضًا، وهكذا ظهرت طائفة **الملوك** في ذلك المجتمع خاصة، والعالم القديم عامة، وتكريمًا لهم حُرِّمت دماؤهم، وولي أبناؤهم الحكم من بعدهم، وانصاعت الرعية لهم، وعلى الرغم من انحسار دورهم في الجزيرة شيئًا فشيئًا، إلا أنَّ العربي حرص على توخي أعلى درجات الحذر في التعامل معهم لما أسبغه الناس عليهم من مظاهر التقديس ومعاني العظمة.

فالملوك يومها سادة العالم دون منازع، بل هم الآلهة على الأرض من غير نقاش، لذلك أقيمت لهم طقوس تعظم ربوبيتهم، وشعائر تقدس ألوهيتهم، فإليهم تنزع أرواح الناس في طلب الراحة النفسية والسعادة الدنيوية، وإليهم ترجع الأمور، وبهم تربط المصائر، وهو ما يشير إليه النابغة الذبياني صراحة في مدح النعمان بقوله[1]:

فَمَنْ أطَاعَ فأعْقِبْهُ بِطاعتِهِ كما أطاعَكَ وادلِلهُ

[1] / ديوانه : ١٣- ١٤ .

على الرَشدِ

ومَنْ عَصَاكَ فَعاقِبْهُ مُعاقبةً تَنْهَى الظَلومَ ولا تَقُعدْ على ضمدِ

وهذا يفسر حرص لقيط بن يعمر الأيادي على قومه من حنق وطيش كسرى، حيث أفادنا البكري أنَّ لقيطًا كان مقرونًا بإمرأة كسرى، وهو خبر قد يكون وراء حبسه، فأطلقه وأمره بالكتابة إلى قومه ليجتمعوا فيغير عليهم فيقتلهم[1]، وإنْ كان أبو هلال العسكري عارض هذا الخبر فذكر: "أنّه كان رهينةً عنده عن إياد لئلا يعبثوا"[2]. وعلى الرغم من اختلاف الروايات وتواتر الأخبار، فما يعنينا من هذا كله حذر لقيط على قومه يوم أحس برغبة كسرى في قتال إياد، فنبههم بقوله[3]:

سلامٌ في الصحيفة من لقيط إلى مَنْ بالجزيرة مِنْ إيادِ

بأنَ الليثَ كسرى قد أتاكم فلا يشغلكم سوق النقادِ

أتاكم منهم ستون ألفًا يزجون الكتائب كالجرادِ

على حنق أتينكم فهذا أوانُ هلاككم كهلاك عادِ

---

[1] / ينظر مروج الذهب : ٢٥٤/١ ، معجم ما استعجم :٧٢/١.

[2] / الأوائل : ٦٤٥أ.

[3] / ديوانه : ٢٨- ٢٩.

فالشاعر يصرح بلفظة الحنق صراحةً، ويسترسل في وصف انطباعه عنه، فهو حنق يرقى إلى غضب الإله على عباده، لذا نجده يسوق ما يؤكد قناعته به، ويعزز تصوره عنه، حينما يشبه انطباعه عن نهايتهم بما آل إليه مصير قوم عاد، الذين لم يبق لهم أثر في البلاد، وهذا التشبيه لا يستشف منه التخويف والترهيب فقط، بل هو قريب مما يسبغه الناس على ملوكهم من صفات التقديس والألوهية، فضلا عما يحمله الحانق من طيش يتمكن منه فيأتي على كل شيءٍ يقع تحت يده، فكيف بك وفعل ملوك فارس، ذوو الجيوش والعُدد؟!

ولمّا لم يعبأ قومه بإنذاره الأول المقتضب بعث لهم بقصيدته العينية التي ضمنها اللفظة عينها، مؤكدًا على صفة جديدة للحنق، ألا وهي تجرد صاحبه من الإنسانية في التعامل مع الموقف، غير مبال لما سيؤول إليه الأمر خيرًا كان أم شرًا، فهمُّ صاحبه في الأول والأخير ينحصر في الانتقام، لذا نجد الشاعر يخبر قومه أنّ الناس أعدوا العدة وهيؤوا الجموع[1]:

أبناءُ قومٍ تآووكُمْ على حنقٍ لا يشعرونَ أضرَ اللهُ أم نفعا

أحرارُ فارسَ أبناءُ الملوكِ لهم مِنَ الجموعِ جموعٌ تزدهي القلعا

فهم سراع إليكم، بين ملتقط شوكًا، وآخر يجني الصاب والسلعا

---

[1] / ديوانه : ٣٥ – ٣٦.

ولم يكتف شاعرنا بهذا القدر من تصوير ملامح البطش والتدمير المرافقة لهذا الإعداد والتجهيز، بل نجده يسترسل في قصيدته مخاطبًا قومه يدر الخوف على حالهم، ويثير الشفقة على عزّهم، ولا نغالي إنْ قلنا إنّه تنبأ بنهايتهم الحزينة المأساوية، وهي حال من يقع عليه حنق وطيش الملوك يومها[1]:

هيهات لا مال من زرع ولا إبل ... يرجى لغابركم إن أنفكم قرعا

لا تثمروا المال لأعداء إنهم ... إنْ يظفروا يحتووكم والتلاد معا

والله ما انفكت الأموال مُذ أبدُ ... لأهلها إن أصيبوا مرة تبعا

يا قوم إن لكم من عز أولكم ... إرثًا، قد أشفقت أن يودي فينقطعا

وما يردُ عليكم عزٌ أولكم ... إن ضاع آخره، أو ذلَّ، فاتضعا

فلا تغرَنكم دنيا ولا طمعٌ ... لن تنعشوا بزماعٍ ذلك الطمعا

يا قوم بيضتكم لا تفجعنَ بها ... إني أخاف عليها

---

[1] / ديوانه : ٤٤ – ٤٥.

الأزلمَ الجَذِعَا

وليس غريبًا أنْ يكون حنق وطيش ملك المناذرة عمرو بن هند مصطبغًا باللون نفسه، وهو المعروف بالمحرّق ـ ومحرّق صنم كان بسلمان لبكر بن وائل، ولا أعلم إن كانت ضحاياه تقدم عن طريق إحراقها وذلك برميها في النيران[1]؛ لأنّه كان يشق أخاديد يشعل فيها النار ويلقي بضحاياه فيها كالذي فعله "يوم أوارة الثاني" لبني زرارة بن عدس التيمي، حيث تذكر الأخبار أنّهم قتلوا أخاه مالكًا فيهم[2]، وقيل ولده[3]، عندما خرج يتصيد فأخفق، فمرّ بإبلٍ لسويد بن ربيعة، فأمر ببكرة منها، فنحرها، ثم اشتوى، فلمّا علم سويد شدَّ عليه بعصا فقتله، وهرب حتى لحق بمكة، فغزاهم الملك، وقد كان أقسم أن يحرق منهم مئة رجل بقتيله، وكان له تسع وتسعون، فقيل له: أبيت اللعن! لو تحللت بامرأة منهم، وكانت الحمراء بنت ضمرة بن جابر فارتجزت إشارة لهذه الواقعة[4]:

إني لبنت ضمرة بن جابر ساد معدًّا كابرًا عن كابر

إني لأخت ضمرة بن ضمرة إذا البلاد لقعت بجمرة

ولم يكن والده الملك المنذر بن امرئ القيس أقل منه حنقًا وطيشًا حينما دعا بكر بن وائل ليدخلوا في طاعته، فأبوا وأمَّروا عليهم سلمة بن الحارث بعد أنْ

---

[1] / ينظر المستقصى من أمثال العرب : ٤٨/١.

[2] / ينظر : أيام العرب في الجاهلية : ٨٥

[3] / ينظر كتاب أيام العرب : ٢٧٣/١.

[4] / أيام العرب في الجاهلية : ٨٦ – ٨٧.

أخرجته تغلب، فما كان من المنذر إلا القسم بالسير إليهم وذبحهم - إنْ ظفر بهم - على قلة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض، وأجلت الموقعة عن نصره فأمر بذبح الأسرى وكانوا كثيرين، فذبحوا على الجبل، ولمّا كان الدم يتجمد، فقيل له: لو صببت عليه الماء، ففعل فسال الدم إلى الحضيض، وأمر بالنساء يحرقن بالنار، فشفع لهن رجل من قيس بن ثعلبة، فأطلقهن المنذر[1]، فقال الأعشى يفتخر بشفاعة القيسي[2]:

وَمِنَّا الذي أعْطاهُ في الجَمْعِ رَبُّهُ على فاقةٍ وللمُلوكِ هِبَاتُها

سَبَايَا بني شَيْبَانَ يومَ أوَارةٍ عَلى النَّارِ إذْ تُجْلى لهُ فتَياتُها

ولا يكاد يختلف الملك الأسود بن المنذر عن والده وأخيه في حنقه وطيشه، حيث غزا بني ذبيان وأسد لقتلهم ابنه شرحبيل فيهم، وكان ذلك عند شط أريك، فقتل فيهم قتلاً ذريعًا وسبى واستاق أموالهم، ولم يكتفِ بفعله هذا بل أحمى لهم الصفا التي بصحراء أضاخ، وقال: إني أحذيكم نعلاً، بنعال ابنه الذي وجده عند أضاخ بني محارب، فأمشاهم على الصفا المحمى، فتساقط لحم أقدامهم[3]، ويرسم الأعشى هول حال القوم يومها في قصيدة مدح فيها الملك وطلب الشفاعة لمن بقي من قومه، نجتزئ منها[4]:

هَوُلَى ثُمَّ هَوُلَى كُلاً أع طَيْتَ نِعَالاً محذُودةً بمِثَالِ

---

[1] / أيام العرب في الجاهلية : ٨٢ - ٨٣.

[2] / ديوانه : ٨٧.

[3] / ينظر كتاب أيام العرب : ٥١٨/١.

[4] / ديوانه : ١١-١٣

فَأرى مَنْ عَصَاكَ أصْبَحَ مَخْذُو لاً وكَعْبُ الّذِي يُطِيعُكَ عَالي

---------- ----------

مِنْ نَوَاصِي دُودَانَ إذْ كَرِهُوا ال بأْسَ وذُبْيَانَ والهِجَانِ الغَوَالِي

رُبَّ رَفدٍ هَرَقْتَهُ ذلِكَ اليَوْ مَ وَأسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أقْتَالِ

---------- ----------

وَشُيُوخٍ حَرْبَى بشَطَّىْ أرِيكٍ وَنِساءٍ كأنّهُنَّ السَّعَالي

فالشعر يقدم لنا صورة غنية عن التعليق في توصيف حال القوم يومها، بيد أنّنا لمسنا اعترافًا صريحًا، وإقرارًا بالخطيئة من الشاعر، وأنّ القوم يستحقون ما آل إليه مصيرهم، وهذا الاعتراف بالذنب له ما يبرره، وذلك لنقضهم العهد مع ربهم وعصيانه ـ وهو الإله القادر على إذلالهم والملك الجبار في إخضاعهم ـ من جهة

ومن جهة أخرى كان حريًّا بهم أنْ يقدروا عاقبة الأمور وما سينتهي إليه حالهم إزاء هذا العصيان، وهو يشير بشكل صريح لما لحقهم من أذى الملك، وهي نتيجة طبيعية لحنقه وطيشه.

وتشكل قصيدة عبيد بن الأبرص بعضًا من ملامح حنق وطيش الملك حجر بن الحارث الكندي على بني أسد، وكانوا تحت ملكه وفي طاعته، وله عليهم إتاوة في كل سنة مؤقتة، وهم على ذلك دهرًا، فمنعوه وضربوا جابيه وأدموه، فسار إليهم، وأخذ سراتهم، وجعل يقتلهم بالعصا ـ لذلك سموا عبيد العصا ـ وأباح الأموال، وصيرهم إلى تهامة، وآلى بالله ألا يسكنوهم في بلد أبدًا، وحبس جماعة من أشرافهم[1]، وعلى الرغم من حرص الشاعر أن يودع في القصيدة معاني الاستعطاف والاسترحام للملك، غير أنه لم يجد مفرًا من تكريس مفهوم الخضوع المادي والخنوع المعنوي الذي أصبح عليه بنو أسد، فرضوا بالإهانة حين ذلوا لسوط الملك ضربًا وتقريعًا، وأقروا بالهزيمة عندما أصبحوا في قبضة الملك بين قتيل وأسير، وأنكى من هذا وذاك نفيهم إلى تهامة بعيدًا عن نجد، فردة فعل الملوك غير مأمونة العواقب، وفي ذلك يقول[2]:

يا عين فابكي ما بني أسد فهم أهل النَدامهْ

أهل القباب ألْحمر وآلْنعم المؤبَل والمُدامهْ

وذي الجياد الجرد والأسل المثَقفة

---

[1] / ينظر الأغاني : ٨٣/٩ ، أيام العرب في الجاهلية : ٩٣.

[2] /ديوانه : ١٢٥ ــ ١٢٦.

المقامهْ

حِلَا ـ أبيت اللعن ـ حلا إنَ فيما قلت آمهْ

في كلِ واد بين يثرب فالقصور إلى اليمامهْ

تطريب عان أو صياح محرَق أو صوت هامهْ

ومنعتهم نجدا فقد حلُوا على وجل تهامهْ

برمت بنو أسد كما برمت ببيضتها الحمامهْ

جعلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامهْ

إما تركت تركت عفوا أو قتلت فلا ملامهْ

أنت المليك عليهم وهم العبيد

إلى القيامهْ

ذلُو لسوطك مثل ما ذلَّ الأشيقر ذو الخزامهْ

وما لبث بنو أسد زمنًا حتى بيتوا النية ثأرًا لكرامتهم المنتزعة ومقدراتهم المسلوبة، وحين سنحت لهم الفرصة انقضوا على الملك حجر فقتلوه، وهذا الحنق في الأمر، والطيش بالفعل، جر عليهم حنق وطيش الملك امرئ القيس الذي أفنى ما تبقى من عمره يتعقب بني أسد طلبًا للثأر، يحشد أنصاره من القبائل الموالية لكندة، وقد تجاوزها إلى طلب نجدة ملك الروم[1]، ويتجلى وعيده وتهديده في قوله[2]:

يا لهفَ هندٍ إذ خَطئْنَ كاهِلا القاتلينَ المِلكَ الحُلاحِلا

تالله لا يذهبُ شيخي باطِلا يا خيَر شيخٍ حسبًا ونائِلا

نحن جلبنا القُرَحَ القَوَافِلا يحملننا والأسَلَ النَواهلا

مُسْتَفْرِمَاتٍ بالحَصَى جَوَافِلا يَسْتشْرِفُ الأواخرُ الأوائِلا

حتى أبيد مالكًا وكاهلا

---

[1] / ينظر أيام العرب في الجاهلية : ٩٤.

[2] / ديوانه : ٥٥٣-٥٥٦.

فالفعل الأبلغ والقول الأمضى للسيف لا للشعر في هذه الظروف، فهو يعدُّ مقتل أبيه أمرًا باطلاً، أي كفرًا، لأنّ قتل الملوك في عرفهم أمر جلل وخطب عظيم، بل عدّه بعضهم من الكبائر، لذا نجده يقسم ألا يذهب دمه هباء، ولا يكتفي بذلك وإنَّما تذكر الأخبار أنه اتخذ على نفسه أمورًا، منها أنه حرم على نفسه الخمر فلا يشربها ولا يقربها، حتى يدرك قتلة أبيه، فيقتل منهم مائه ويجز نواصي مائة ولاسيما عليَة القوم، وكان له ما أراد عندما ظفر بهم[1]، ويومها لسان حاله يقول[2]:

يا دارَ ماويَةَ بالحَائِلِ فالقَردِ فالخَبْتَيْنِ مِنْ عاقِلِ

صَمَ صَدَاها وعَفَا رَسْمَها بَعْدَكَ صَوْبُ المسْيلِ الهَاطِلِ

قُولا لِدَوْدانَ عَبيدِ العَصَا ما غرَّكُمْ بالأسدِ البَاسلِ

قَدْ قَرَّتْ العيْنانِ من مالكٍ ومن بني عمروٍ ومن كاهلِ

ومن بني غنمٍ ابن دُودَانَ إذْ نقذفُ أعلاهُمْ على السَافلِ

نطعنُهُمْ سُلكَى ومَخْلوجَةٌ كَرُكَ لأمينِ

---

[1] /ينظر أيام العرب في الجاهلية : ٩٦ -٩٧.

[2] / ديوانه : ٥١٨-٥٢٣.

على نابلِ

إذْ هُنَ أرْسالٌ كَرِجْلِ الدَبى أو كقطا كاظِمَةً النَاهلِ

حتى تَركناهُمْ لدى مَعْركٍ أرْجُلُهُمْ كالخشبِ الشَائلِ

حلَتْ لي الخمرُ وكُنْتُ امْرَأً عن شُرْبِها في شُغْلٍ شَاغِلِ

فاليومَ أشْرَبْ غيرَ مُسْتحقِبٍ إثمًا مِنَ اللهِ ولا وَاغِلِ

وقد يخرج حنق وطيش الملوك عن الدائرة العامة إلى الحلقة الأضيق، ونعني بها الحالات الفردية الخاصة، فالخوف على حياته من حنق وطيش الملك النعمان بن المنذر ما دفع النابغة الذبياني لأن يتوارى عن أنظاره زمنًا ـ بعد أن اتهم بزوجه المتجردة[1] ـ فتلبسه الهمُّ واليأس ردحًا من الزمن، ولم يجد بدًّا من التعبير عما يكتنفه من رهبة وفزع يقضان مضجعه، لذا عمد إلى جملة من التشبيهات، تفضي بالمتلقي إلى قدرة الملك على الظفر به، على الرغم من بعد المسافات، وطول السنوات، وكيف لا ؟! وهو الإله القادر والملك الجبار[2]:

وَعِيدُ أبي قابُوسَ في غيرِ كُنْهِهِ أتَاني ودُوني راكسٌ

---

[1] / ينظر الأغاني : ٢٩/١١.

[2] / ديوانه : ٤٥ ــ ٥٢.

فالضَواجعُ

فَبِتُ كَأنِي سَاورَتْني ضَئيلةٌ مِنَ الَرُقْشِ في أنيابِها الْسُمُ ناقعُ

فإنكَ كاللَيلِ الذي هو مُدْرِكي وإنْ خُلْتُ أنَ المُنْتَأى عنكَ واسِعُ

هذا على صعيد البعد المادي، أما على صعيد البعد المعنوي للقضية، فلم يجد النابغة ضيرًا في قصيدة أخرى من وصف ما يساوره من قلق، وهي نتيجة طبيعية لحنق الملك والخوف من طيشه، حتى بات معزولا منزويًا كالبعير الأجرب حرصًا على حياته، وهنا لا يجد بدًّا من التصريح بربوبية الملك في إطار عتاب العبد لإلهه، في قوله[1]:

فلا تَتْرُكنِّي بالوَعيدِ كأنني إلى النَاسِ مَطْلِيٌ بهِ الْقارُ أجْرَبُ

فإنْ أكُ مظْلُومًا فَعبْدٌ ظَلَمْتَهُ وإنْ تكُ غضْبانًا

---

[1] / المصدر نفسه : ٧٨-٧٩.

فَمثْلُكَ يُعْتَبُ

أتاني أبيت اللَعْنَ أنَكَ لُمْتني وتلك الَتي أهتمُ منها وَأنْصَبُ

وإذا كان النابغة قد أفلت من قبضة النعمان ونفد بنفسه، فإن شرك الموت قد اقتنص طرفة بن العبد، بعدما أثار عليه حقد الملك عمرو بن هند بهجائه له، فأضمر له السوء، وحينما سنحت للملك الجبار الفرصة، عندما وفد الفتى مع خاله المتلمس عليه يستجديان فضله ويطلبان نواله – وكان المتلمس قد هجاه أيضًا – أمر لكل منهما بصلة وأحالهما بكتابين على المكعبر عامله في البحرين ليستوفيها منه، غير أن المتلمس التمس من يقرأ له الصحيفة بعد أن ساورته الوساوس ولازمته الظنون، وحال معرفته بما فيها من مكيدة مبيتة ألقى الصحيفة في النهر، وطلب من صاحبه أن يفضَّ الكتاب إلا أنه أبى ذلك وسار بخطى ثابتة نحو نهايته المرسومة، ولسان حاله يخاطب قومه والموت يدب في أوصاله[1]، بقوله[2]:

ألا أبْلغا بَكْرَ العراقِ ابْنَ وائِلٍ بِكْأسٍ، سقى النَصريُ شارِبَها، رَمْض

فَميلوُا على النُعْمان، في الحربِ، ميْلَةً وَكَعْبُ بنُ زَيْدٍ فاشغلوهُ عنِ المحضِ

---

[1] / ينظر الشعر والشعراء : ٩٨.

[2] / ديوانه : ١٦٨ – ١٦٩.

هُما أورداني الموْتَ عَمْدًا، وجَرَدا على المَوْتِ خَيْلاً، ما تمِلُ مِنَ الركْضِ

رَدِيْتُ، نَجَى اليشكُرِيُ حِذَارَهُ وحادَ كما حادَ البعيرُ عنِ الدَحْضِ

ولو خِفْتُ هذا الفتكَ في الدِينِ دِافعَتْ بنو مالكٍ حتى يَرُدُوا الذي يقضي

فيا عجبًا للجذْعِ أرْفَعُ فوقهُ ! وللصَلْبِ حَظِي مِنْ عُدَاةٍ ومِنْ قَرْضي

---------- ----------

أبا مُنْذِرٍ! كانتْ غَرُورًا صَحِيفَتي ولمْ أُعْطِكُمْ، في الطوْعِ، مالي، ولا عِرْضي

والقصيدة طويلة، وهي خطاب مباشر لقومه، حدد فيها القاتل في أكثر من موضع صراحة أو بذكر ديانته النصرانية التي كان عليها الملك النعمان، داعيًا قومه للأخذ بالثأر بعدما قتل شر قتلة حين صلب على الجذع حتى مات .

ب- الفرسان

لقد أفرز الواقع القبلي للمجتمع الجاهلي نمطًا من الحياة، تطلب النهوض

بأعبائه صنفًا مميزًا من الرجال، حملوا على عاتقهم الذود عن حمى القبيلة وشرفها، وكانوا نتاجًا طبيعيًا لمظاهر الصحراء المختلفة والمتناقضة، وقد أطلق عليهم الفرسان، حملتهم الأقدار أو نسبهم - في بعض الأحيان - إلى سدة الرئاسة والزعامة، وهذا بطبيعة الحال ساعد على أن تكون لهم حظوة كبيرة في نفوس الناس، بيد أنّ بعضهم انتزعوا مكانتهم عنوةً بالإقدام والبطولة، فضلا عن خصالهم الحميدة، وسجاياهم الرفيعة، لذا أصبحت أكاليل الغار ترفع لهم، و صار المجد المؤثل يصنع بهم، فهم ليسوا طائفةً فحسب، بل هم أعظم شأنًا في المجتمع الجاهلي مما يمكن أنْ يصفه المرء؛ لأنّهم نجومٌ يهتدى بهم عند الخطوب، وأبطالٌ يتكأ عليهم في النوائب، فيهم تنشد الأشعار وعنهم تسرد الأساطير، فكل قول يطلقوه وأي حدث يصنعوه يتردد صداه متجاوزًا حدود المكان والزمان[1]، ويترجم ذلك كله أوس بن معن في قوله[2]:

لسنا وإنْ كَرُمَتْ أوائلنا يومًا على الأحساب نتكلُ

نبني كما كانتْ أوائلنا تبني، ونفعلُ مثلما فعلوا

ومن البدهي أنْ يتجلى حنق وطيش هذه الفئة في ميادين القتال بشكل رئيس، كون الواجب المناط بهم، هو الذود عن الديار وصون العرض، وغايتهم المرجوة نيل الحمد والثناء، يقول قيس بن الخطيم[3]:

صَبَحْناكُمُ منّا بهِ كُلَّ فارسٍ كريمِ النَّثا يحمي

---

[1] / ينظر الفروسية في الشعر الجاهلي.

[2] / ديوانه : ١١٧. وينظر أيضا ديوان عامر بن الطفيل : ٦٢.

[3] / ديوانه : ٢١٦. وينظر أيضا ديوان الحماسة : رقم ١٧٥.

الذِّمارَ لِيُحْمدا

وبصرف النظر عن دوافع القتال وحيثياته ومجرياته، حيث سبقنا إليه عدد من الباحثين والدارسين، نقول: لكي يرتقي الفرسان إلى مستوى الحدث، نجدهم يقطعون على أنفسهم عهدًا ألا يقربوا أشياءَ جبلوا عليها، تحدِيًا لذاتهم، وترويضًا لإرادتهم، فتكون حافزًا للوفاء بالعهد الذي قطعوه، فكلما نزعت أنفسهم لهذه المحرمات تذكروا ما ألزموها به، وما كان هذا ليولد في داخلهم عن فراغ، ولكن لتمكن الحنق منهم، فيلازمهم حتى يأخذوا ثأرهم، ويقضوا وترهم، وتترسخ هذه الفكرة عند المهلهل، وهو الذي وقف وأطلق قسمه الأخوي[1]:

خُذْ العهدَ الأكيدَ عليَّ عُمْرِي بِتَرْكِي كُلَ ما حَوَتِ الدِّيارُ

وَهَجْرِي الْغَانِيَاتِ وَشُرْبَ كَأْسٍ وَلُبْسِي جُبَةً لا تُسْتَعَارُ

وَلَسْتُ بِخَالِعٍ دِرْعِي وَسَيْفِي إلى أنْ يَخْلَعَ اللَيْلَ النَهارُ

وإلاَ أنْ تَبيدَ سَرَاةُ بَكْرٍ فَلَا يَبْقَى لَهَا أبَدًا أثَارُ

وربما هذا القسم يفسر لنا استمرار حرب البسوس ما يقرب من الأربعين عامًا، وهنا يتجلى الطيش في طول عمر الصراع، فضلا عما حلَّ بقوم ربيعة - بكر

[1] / ديوانه : ٣٤.

وتغلب – وهي نتيجة طبيعية لهذا العداء المرير، وعلى الرغم من ذلك نجد المهلهل يوغل في غيّه رافضًا الصلح، ممسكًا بتلابيب الحرب[1]:

يا رُبَّ يَوْمٍ يَكُونُ النَّاسُ في رهجٍ بِهِ تَراني عَلَى نَفْسي مُكَاوِيهَا

مُسْتَقْدِمًا غُصَصًا لِلْحَرْبِ مُقْتَحِمًا نارًا أُهَيّجُهَا حينًا وأُطْفِيهَا

لا أَصْلَحَ اللهُ مِنّا مَنْ يُصَالِحُكُمْ مَا لَاحَتِ الشّمْسُ في أَعْلَى مَجَارِيهَا

وهكذا يسترسل في وعيده وتهديده لبني بكر، غير آبهٍ بنتائج الحرب المستعرة، بل يحرص على توريثها جيلا بعد جيل، والغاية المرجوة شفاء غليله من خصومه[2]:

كَيْفَ أَنْسَاكَ يا كُلَيْبُ وَلَمَّا أَقْضِي حُزْنًا يَنُوبني وَغَلِيْلا

كَيْفَ يَبْكِي الطُّلُولَ مَنْ هُوَ رَهْنٌ بِطِعَانِ الأَنَامِ جِيْلاً فَجيلا

والشواهد في شعره كثيرة، فضلا عما ضمته أيام العرب بين ثناياها من أخبار تلك الحرب، وما حوته دواوين الشعراء من الشواهد، والجدير بالاهتمام هو الإسراف

---

[1] / ديوانه : ٩١.

[2] / المصدر نفسه : ٦٢-٦٣.

بالقتل[1]:

أَكْثَرْتُ قتْلَ بني بَكْر بِرَبِّهِمِ حتَّى بَكَيْتُ ومَا يبكي لهُمْ أحَدُ

فالقتل يلعب دورًا رئيسًا - عند جماعة الفرسان - في إطفاء جذوة الحنق، وانعقاد عقال الطيش، لذا نجد الفارس يحاول جاهدًا ارتكاب أعلى درجات العنف في ساحات الوغى، وهي نتيجة طبيعية لما يحمله تجاه خصمه من ضغينة شديدة وحقد أسود، وليس أدلَّ على ذلك من صرخة الادّعاء باسم الموتور نشوة لإدراكه وتره، والبر بقسمه[2]، وهما قيدان ثقيلان يحرص الفارس الجاهلي على الإفلات من قبضتهما والتحرر من وطأتهما بقتل غريمه، لهذا حرص على استخدام لفظة (شفى) بصيغها المختلفة، كي يعبر بصورة غير مباشرة عن وضعه النفسي المضطرب الذي يرقى إلى مستوى السقم، ويبدو هذا ما كان عليه حال عنترة في قوله[3]:

ألا هلْ أتاها أنَّ يوْمَ عُراعِرِ شفى النفسَ سَقَمًا لو كانتِ النفسُ تشتفي

وعليه يبيح الفارس لنفسه التعامل مع الخصم أثناء القتال بسبل تكتنفها القسوة، ويعتريها النزق، لذا تراه يعمد إلى تسخير سلاحه للبطش بخصمه غير مبال بقوانين النزال، ولا مراع للقيم الإنسانية، فإذا طعن بالرمح دفع القناة في الجسد بقوة حتى تنثني أو تنكسر[4]، وإذا ضرب بالسيف عمد إلى بتر الأطراف، وضرب العنق، وفلق الهامة، وقطع الرأس، وجدع الأنف[5]، وتجاوز الحدود المعقولة إلى ترويض فرسه

---

[1] / المصدر نفسه : ٢٧.

[2] / ينظر ديوان الحادرة : ٥٢.

[3] / ديوانه : ٢٣٨. وينظر أيضا ديوانه : ٢٧٩.

[4] / ينظر ديوان الأعشى : ٣٥٥ ، ديوان حسان بن ثابت : ١٠٣ ، شعراء إسلاميون ٤٨٢.

[5] / ينظر ديوان طرفة بن العبد : ١٠٧ ، ديوان سلامة بن جندل : ١٧٠ ، ديوان عامر بن الطفيل : ٤٩ ، ديوان عنترة بن شداد ٢٥٧ ، ، ديوان الحماسة : رقم ١٣٣، ٢٦٠ ، والشواهد في هذا الموضع كثيرة.

لإيطاء القتلى بغية الإجهاز عليهم، وهذا ضرب من الانتقام[1]، وليس الغاية من هذه الأفعال إظهار ملامح القوة البدنية فحسب، ولا إدخال الرهبة في نفس الخصم أيضًا، بقدر ما هي ردة فعل الفارس عما يعتمل في نفسه من حنق، يتجسد على هيئة طيش يترجمه إلى تلك الأفعال التي يندا لها الجبين، وتقشعر لها الأبدان، ويبدو أن الفارس لا يعبأ بشيء سوى التعامل مع ما يتناسب والحدث، وقد أجاد ابن مقبل في توظيفه للفظتي (نعيد) و(نبدئ) في إشارة للضرب المتوالي للسيف، فاستمرارية عمل السيف في جسد الخصم توضح بما لا يقبل اللبس شدة غيضه عليه، فما ينفك يعمل السيف فيه حتى تستقر ذاته، وترتاح نفسيته، إذ يقول[2]:

فبتُنا نُعِيدُ المَشْرفيَةَ فيهِمُ ونُبْدئُ حتَى أصبحَ الجَونُ أسْوَدَا

ومن ضروب الاستقرار الذاتي، والراحة النفسية أيضًا، الدم حيث حرص الشاعر على عرض صور الدماء كلما سنحت له الفرصة، فالمسألة أبعد من قضية النصر والهزيمة، لذا نراه يحرص على إرواء سنان رمحه من الدم فيصدره أحمر، بل غالى في ذلك حينما جعل الدم يرويه متصببًا من قناته[3]، والسيف يقطر دمًا لغزارته[4]، والخيل تسربلن بالدماء، وهن يخضن أوار المعركة في بركة من الدم[5]، ويوغل في الوصف عندما يتغير لون سلاحه من الأبيض لغزارة الدماء التي تكسوه وقد تخثرت عليه من الضرب المتوالي إلى الأسود[6]، ولا يكتفي بذلك، بل نجده يعمد إلى جعل ميدان المعركة يصطبغ باللون الأحمر ولاسيما أرضها فيحمر لونها، وهو

---

[1] / ينظر ديوان عنترة بن شداد : ٣٠٧ ، ديوان عمرو بن معد يكرب : ١١٣ ، ١٥٣ ، ١٩٠ ، شعراء إسلاميون : ٢٠٠ – ٢٠١.

[2] / ديوانه : ٥٩.

[3] / ينظر شعر قيس بن زهير : ٣٦ ، مالك ومتمم ابنا نويرة : ١٣٧ ، شعراء إسلاميون : ٢٥٢ ، والشواهد في هذا الموضع كثيرة.

[4] / ينظر المفضليات : رقم ١١ ، ضمرة بن ضمرة : ١١٨ ، والشواهد في هذا الموضع كثيرة.

[5] / ينظر ديوان العباس بن مرداس : ١٤٦ ، ديوان الحماسة : رقم ١٨٥.

[6] / ينظر ديوان ابن مقبل : ٥٨.

لا يتوانى أن يؤكد حقيقة مفادها أن الإنسان الجاهلي لا ترتاح نفسيته إلا بغزارة الدماء، وهو ما ذهب إليه قيس بن الخطيم في قوله[1]:

ترى اللَابة السَوداء يحمر لونها ويسهل منها كلَ ريعٍ وفدْفدِ

ومن المشاهد الباعثة لعنفوان الزهو بالنفس، والمحركة لعناصر النشوة بالراحة، هو ما ينقشع عنه غبار القتال، من قتلى ممددين تطوف بهم الوحوش الضارية، وتحجل فوقهم الطيور الجارحة[2]، تعبث بجثثهم على نحو مقزز، وجرحى يتأوهون وهم في نزقهم الأخير، ولا يحول بينهم والموت إلا أطرافهم التي مابرحت تدب فيها الحياة[3]، وقد يتعدى الأمر جميع الخطوط الحمراء عند التمثيل بجثث القتلى من لطم الوجوه، وجدع الأنوف، وقطع الألسن، وشرب الخمر بالجماحم[4]، كلها صور صور على بشاعتها تروي ظمأ الحنق لديه، وتخفض مستوى الطيش عنده، فعلينا ألا نستغرب ما تمنى أن يراه المهلهل بعد انجلاء المعركة من حال قتلى بكر وقد فنيت عن بكرة أبيها، وأفل نجمها وتلاشى عزها فلم يبقَ لها خبر ولا ذكر، إذ يقول[5]:

وَتَذُوقَ حَتْفًا آل بَكْرٍ كُلُّها وَنَهُدَّ مِنْها سَمْكَهَا الْمَرْفُوعَا

حتَّى نَرى أوْصَالَهُمْ وَجَمَاجِما مِنْهُمْ علَيْها الخَامِعَاتُ وُقُوعَا

---

[1] / ديوانه : ١٢٦.

[2] / ينظر ديوان أوس بن حجر : ٣٠ ، ديوان بشر بن أبي خازم : ١١ ، ديوان دريد بن الصمة : ١٠٣ ، ديوان سلامة بن جندل : ١٩٤، وغيرهم.

[3] / ينظر ديوان عنترة : ٣٠٢.

[4] / ينظر ديوان امرئ القيس : ٣٦٠ ، ديوان سلامة بن جندل : ٢١٥ ، المفضليات : ق١٠٣ ، كتاب أيام العرب قبل الإسلام : ٢/ ٢٢١ ،٢٥٠.

[5] / ديوانه : ٤٨.

وَنَرى سِبَاعَ الطَّيْرِ تنقر أعْيُنا وتَجُرُّ أعْضَاءً لَهُمْ وضُلُوعَا

ويبدو أن الحنق والطيش يعميان بصيرة المهلهل، فيتجاوز الحدود المعقولة والمنطقية للقتل إلى أكثرها بشاعة وأشدها شراسة، في إشارة فريدة لقتل الأطفال ـ إذ لم يتسنَّ لي الحصول على هكذا إشارة لما قرأت في الشعر الجاهلي ـ وهو بذلك يصل إلى حدود الإبادة، وأية إبادة، فالذبح يجرده من الإنسانية، ولاسيما أنه يستقوي على من لا حول ولا قوة لهم، إذ يقول[1]:

قَدْ ذَبْحْنَا الأطْفَالَ مِنْ آلِ بَكْرٍ وَقَهَرْنا كُمَاتَهُمْ بالنِّضَالِ

ولما كان الحنق والطيش هما سيدا الموقف، فليس غريبًا أن ترتكب أبشع الجرائم وتقترف أقبح الجنايات، ولعل أعظمها بشاعة بقر بطون الحبالى ـ وهذه إشارة أخرى نادرة لا تجد إشارة لها في الشعر الجاهلي غير هذا الموضع ـ وهو ما افتخر عامر بن الطفيل بذكره عند تعداد مناقب قومه بقوله[2]:

بَقَرْنا الحَبَالى مِنْ شَنُوءةَ بَعْدما خَبَطنَ بفَيْفِ الريحِ نَهْدًا وخَثْعَما

ويشكل الأسرى والسبايا عند هذه المجموعة وسيلة لامتصاص زخم الحنق، وكبح جماح الطيش، لهذا نجد الفارس الجاهلي يعمد إلى طرائق قدادا في التعامل معهم، وجميعها تخضع لسطوة الضغوط النفسية وتأثيراتها، وربما هذا ما يبرر إيغاله

---

[1] / ديوانه : ٧٢.

[2] / ديوانه : ١١٦.

بإذلالهم وتماديه في إهانتهم عندما يلجأ إلى ربطهم بالحبال، وتكبيلهم بالأغلال، بغية سحلهم أو تقيد حركتهم وهي موثوقة بطريقة تنهش أجسادهم، وكثيرًا ما افتخروا بذلك على نحو قول النابغة الذبياني[1]:

لمْ يبقَ إلَا أسيرًا غيرُ مُنْفَلِتٍ أوْ مُوْثَقٍ في حِبَالِ القَوْمِ مَجْنُوبِ

أوْ حُرَةٍ كمَهَاةِ الرَمْلِ قدْ كُبِلَتْ فَوْقَ الْمَعاصِمِ مِنْها والْعَرَاقِيبِ

تَدْعُو قُعَيْنًا وَقَدْ عَضَ الْحَدِيدُ بِها عضَّ الثِقَافِ على صُمِّ الْأنابيبِ

ولم يتوان الفارس الجاهلي من العبث بمصير الأسرى وقدر السبايا، حينما عمد إلى سومهم سوء العذاب، وإذاقتهم كأس المرارة حتى الهلاك، وهي أفعال خسيسة وإن استهجنها العرب في الجاهلية، إلا أنها تعكس حجم الحنق المسيطر على أفعاله وقتها، وبالتالي كان هذا الطيش المستقبح، فلما أسرت بنو عامر معد بن زرارة في حرب الفساد، ورفض أخوه دفع دية الملوك عنه، أرسلوه إلى رجل بالطائف يعذب الأسرى قطعه إربًا إربًا حتى قتله[2]، وكان بعضهم يمنعون عن الطعام والشراب، وهو ما عير أدهم بن حازم الضبي خصومه به في قوله[3]:

فما نسلبُ القتلى كما قد فعلتُمْ ولا نمنعُ الأسرى من الأكلِ والشُرْبِ

---

[1] / ديوانه : ٩٢-٩٣. وينظر أيضا ديوان الأعشى : ٣٢٧ ، ديوان عامر بن الطفيل : ٤٩ ، ديوان إبن مقبل : ٢٤٢ ، ديوان الخنساء : ٣٤٩ ،

شرح ديوان الهذليين : ٢٠٧/١ ، ٤٧٢ ، ٢/ ٨١٦ ، الأغاني : ٥/١٣.

[2] / ينظر كتاب أيام العرب قبل الإسلام : ١٣٨/٢ – ١٣٩.

[3] / أشعار قبيلة ضبة وأخبارها : ت ٣ ص ١١٧ .

وسلْبُ ثيابِ الميتِ عارٌ وذلةٌ ومنعُ الأسيرِ الزَادَ منْ أقبحِ السَبِّ

ج– الصعاليك

يقوم الجانب الاجتماعي للمجتمع الجاهلي على مجموع أواصر الترابط وعرى التواصل مع القبيلة، فالقبيلة هي الوحدة الاجتماعية الرسمية يومها، وأساس تكوين بنائها قائم على وشائج الدم، حتى غدا كل أفرادها يؤمنون بأنهم أبناء لأب واحد، فهم يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها، متجانسة لا تباين بين أفرادها، متآلفة لا شذوذ بين أعضائها، وهذا يفسر حرص العربي أن تبقى هذه الوحدة نقية، يخرج منها ما يراه شائبا، ولا يسمح لغريب بأن يدخل نطاقها إلا بشروط خاصة، ووفق تقاليد معينة، وفي ضوء هذه المعطيات أصبحت العصبية القبلية هي الدستور الحكم والعرف السائد، وهذا الدستور كرس للعربي حقوقًا على القبيلة، مثلما رتب عليه واجبات نحوها.

وفي إطار هذا المنظور تكون طائفة **الصعاليك** ضالتنا في هذه الدراسة، وبصرف النظر عن حيثيات تكوينها ضمن واقع المجتمع الجاهلي وكل ما يتصل بها - فقد سبقنا إليها عدد كبير من الباحثين والدارسين لا يتسع المقام لذكر أسمائهم ونتاجهم – فهم في الرأي العام شذاذ الآفاق وفتاك الطرق، بعدما تخلت قبائلهم عنهم، وسحبت جنسيتها منهم، فكان من الطبيعي أن يفقدوا إيمانهم بمعاني القبيلة، وأن يكفروا بالعصبية القبلية، وهذا بدوره ولد رغبة الانتقام، وروح التمرد، وقد انعكس حنقًا على كل ما يتصل بقبائلهم، ونفذوه على هيئة أفعال يعتريها الطيش في مواقف

كثيرة.

فهذا الشنفرى يعتريه الحنق فيصب جمّ غضبه على بني سلامان - والذين كانوا وراء قضية تصعلكه – لسببين غيَّرا مجرى حياته، أولهما انتقامًا لاستعبادهم له، ويمثله قوله: " أمّا أنّي سَأَقْتُلُ مِنْكُمْ مائةَ رَجُلٍ بما اعْتَبَدْتُمُوني"؛ والآخر ثأرًا للرجل الذي كان في كنفه وأحسن إليه وقد زوجه ابنته[1]، فها هو يتوعدهم في شعره توعدًا عنيفًا، ويعلن أنّه سيلاحقهم طلبا للانتقام، ولن يحول بينهما إلا موته، فالمسألة مفرغ منها[2]:

أَبْغِي بَنِي صَعْبٍ بحُرِّ بلادِهِمْ وَسَوْفَ أُلاقِيهِمْ إنِ اللهُ يَسَّرَا

ويومٍ بِذاتِ الرَّسِّ أو بَطْنِ منْجَلٍ هُنَالِكَ نَبْغِي الْقاصِيَ الْمُتَغَوِّرَا

ويبدو أنّه أدرك مراده من بني سلامان، واقتصَّ منهم قصاصًا موجعًا، في أكثر من حادثة، وضمت تائيته إشارةً واضحةً لارتياحه مما آل إليه الأمر، وسكون طيشه، بتبادل التهاني مع أصحابه. وهذا نتيجة طبيعية لما جناه القوم من معاداته[3]:

جزَيْنا سَلَامانَ بْنَ مُفْرِجَ قَرْضَها بِمَا قَدَّمَتْ أيديهم وأَزَلَّتِ

وهُنِّئَ بي قَوْمي وما إنْ هَنَأْتُهُمْ وَأصبحتُ في قَوْمٍ

---

[1] / ينظر الأغاني : ٢١- ١٣٤.

[2] / شعره : ٦٠.

[3] / شعره : ١٠٢.

وليَسُوا بِمُنْيَتِي

ونجد في التائية نفسها ضربًا آخر من طيشه الذي شطّ به عن الأعراف والتقاليد، حين يقدم على قتل حرام بن جابر الغامدي – وقد أشاع بنو الحارث بن ربيعة أن الرجل قتل مالكًا أبا الشنفرى – في الحرم وعند الهدي بمنى[1]:

قتلْتُ حَرامًا مُهْدِيًا بِمُلَبِّدٍ بِبَطْنِ مِنىً وَسْطَ الْحَجِيجِ الْمُصَوِّتِ

ويتجلى حنق قيس بن الحدادية على قومه بالإغارة عليهم، وقتل أبنائهم، واستياق أموالهم - بعد أن خلعته قبيلة خزاعة في الحرم لعدم قدرتها على تأدية دياته، وكان يفرط في القتل – ومن وجهة نظره أنّهم يستحقون ما آل إليه مصيرهم بعده من فقرٍ ووهنً، لقطعهم صلة الرحم معه[2]:

فأُقْسِمُ لولا أسْهَم ابن مُحرَّقٍ مَعَ اللهِ ما أكثرتُ عدَّ الأقاربِ

تركتُ ٱبن عُشٍّ يرفعون برأْسِهِ ينوءُ بساقٍ كعبُها غيرُ راتبِ

وأنهاهُمْ خلعي على غيرِ ميرةٍ منَ اللحمِ حتى غُيِّبوا في الغوائبِ

الخاتمة

---

[1] / شعره : ١٠٣.

[2] / عشرة شعراء مقلون : ٣٢.

بعد أن رافقنا الشعر الجاهلي في واحد من موضوعاته الشيقة، والمرتبطة بنفسية الشاعر آنذاك، نجمل في السطور التالية نتائج البحث:

ففي التوطئة حرصنا على تقديم صورة مقتضبة لواقع المجتمع الجاهلي، كي تكون مدخلاً إلى لفظتي الحنق والطيش، ولا سيما أنهما كانتا نتاجًا طبيعيًا للحياة يومها، وبعد التقصي في المعاجم العربية وتحليل النصوص الشعرية، خلصنا إلى أنّ الحنق والطيش خصلتان ذاتيتان تحركهما ظروف خارجية، لا يتحرر الإنسان منهما إلا بزوال تلك العوامل.

أما الدراسة فتناولت طبقات المجتمع المهمة والمؤثرة في الحياة الجاهلية، وإن تفاوت مكانتها وقيمتها، وأبرزها الملوك سادة العالم القديم، وكان حنقهم يرقى إلى مستوى الآلهة، وطيشهم يطول الجميع، لذلك كانت ضحاياهم تقدم قرابين للنصر؛ أما الفرسان فلا يقلون منزلة عن الملوك، ولكنهم ينتمون إلى الواقع بكل معنى الكلمة، من هنا جاء حنقهم طبيعيًا ليس فيه تكلف في الفعل، وكذلك طيشهم فهو ردة فعل تعكس ما يعتمل في قلوبهم، والمبالغة في الصور لا يفهم منها سوى الردع ليس إلا، فضلا عن الزهو، بينما الصعاليك كانوا يعبرون عن حنق بسيط، وطيش ضعيف لأنهم رضوا بواقعهم الذليل، ناهيك عن قلة عددهم.

المصادر والمراجع

- أصول علم النفس / د.أحمد عزت راجح / ط٣ / الإسكندرية / المكتب المصري الحديث للطباعة

والنشر / ١٩٧٣.

- الأغاني / الأصفهاني: أبو فرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هج) / تحقيق:إبراهيم الابياري/

القاهرة / دار الشعب / ١٩٦٩.

- الأوائل / العسكري:أبو هلال الحسن بن عبد الله(ت٣٩٥هج) / مخطوط مصور المجمع

العلمي العراقي

- أيام العرب في الجاهلية / محمد أبو الفضل إبراهيم – علي محمد البجاوي / بيروت / المكتبة

العصرية / ٢٠٠٩.

- تاج العروس من جواهر القاموس/ الزبيدي :أبو الفيض محمد مرتضى(ت١٢٠٥هج) / مصر /

المطبعة الخيرية / ١٣٠٦هج.

- التوقيف على مهمات التعاريف / المناوي:محمد عبد الرؤوف / تحقيق:د.محمد

رضوان الداية /

ط١ / بيروت / دار الفكر المعاصر / ١٤١٠هج

- ديوان إبن مقبل / تحقيق:عزة حسن / دمشق / مطبوعات مديرية إحياء التراث القديمة /١٩٦٨.

- ديوان الأعشى الكبير(ميمون بن قيس)/ شرح وتعليق:محمد محمد حسين / بيروت / دار

النهضة / ١٩٧٤.

- ديوان أوس بن حجر / تحقيق: محمد يوسف نجم / ط٣ / بيروت / دار صادر /١٩٧٩.

- ديوان معن بن أوس المزني / تحقيق:د.نوري القيسي، د.حاتم الضامن / بغداد / دار الجاحظ / ١٩٧٧.

- ديوان الحارث بن حلزّة / تحقيق:هاشم الطعّان / بغداد / مطبعة الإرشاد /١٩٦٩.

- ديوان الحماسة / أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي(ت ٢٣١هج) / تحقيق: د. عبد المنعم أحمد صالح /

بغداد / مطابع دار الشوؤن الثقافية العامة / ١٩٨٧.

- ديوان سلامة بن جندل / تحقيق:فخر الدين قباوة / حلب / مطبعة الأصيل / ١٩٦٨.

- ديوان شعر الحادرة / تحقيق:د.ناصر الدين الأسد / بيروت / دار صادر /١٩٧٣.

- ديوان طرفة بن العبد / شرح:الأعلم الشنتمري(ت٤٧٦هج) / تحقيق:درية الخطيب ولطفي الصقال /

ط٢ / بيروت / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / ٢٠٠٠.

- ديوان عامر بن الطفيل العامري / الأنباري:أبو بكرمحمد بن القاسم / تحقيق:د.محمود الجادر

ود.عبد الرزاق الدليمي / بغداد / دار الشؤون الثقافية العامة / ٢٠٠١.

- ديوان العباس بن مرداس السلمي / جمع وتحقيق:يحيى الجبوري / بغداد / دار الجماهير / ١٩٦٨.

- ديوان عبيد بن الأبرص / تحقيق وشرح:د. حسين نصار / مصر / مطبعة مصطفى البابي

الحلبي وأولاده / ١٩٥٧.

- ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي / صنعة : علي ابو زيد / ط١ / دمشق / دار سعد

الدين / ١٩٩١.

- ديوان عمرو بن معديكرب الزبيدي/ صنعة:هاشم الطعان / بغداد / مطبعة الجمهورية /١٩٧٠.

- ديوان عنترة / تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي / بيروت / مطبوعات المكتب الإسلامي /

١٩٧٠.

- ديوان قيس بن الخطيم / تحقيق:د.ناصر الدين الأسد / بيروت / دار صادر / ١٩٦٧.

- ديوان لقيط بن يعمر الأيادي / رواية:إبن الكلبي(ت٢٠٤هج) / تحقيق : خليل إبراهيم العطية/

بغداد / مطبعة الجمهورية / ١٩٧٠.

- ديوان مهلهل بن ربيعة / شرح وتقديم:طلال حرب / بيروت / الدار العالمية / د ت.

- ديوان النابغة الذبياني / صنعة:إبن السكيت(ت٢٤٤هج) / تحقيق:د.شكري فيصل / بيروت /

دار الفكر / الطبعة الثانية / ١٩٩٠.

- السيرة النبوية / إبن هشام:أبو محمد عبد الملك(ت٢١٨هج) / تحقيق:مصطفى السقا وآخرين / مصر /

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ١٩٣٦.

- شرح ديوان حسان بن ثابت / ضبط وتصحيح:عبد الرحمن البرقوقي / بيروت / دار الأندلس/ ١٩٨٣.

- شرح شعر الشنفرى الأزدي / الحلبي:محاسن بن إسماعيل / تحقيق:د.خالد عبد الرؤوف الجبر /

عمان / دار الينابيع / ٢٠٠٤.

- شعر تأ بط شراً وأخباره / جمع وتحقيق وشرح:علي ذوالفقار شاكر/ بيروت / دار الغرب الإسلامي /

١٩٨٤.

- شعر قيس بن زهير / جمع وتحقيق:د.عادل البياتي / النجف / مطبعة الآداب / ١٩٧٢.

- الشعر والشعراء / ابن قتيبة:أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري(ت٢٧٦هج) /

بيروت / دار الكتب العلمية / ٢٠٠٥.

- ضمرة بن ضمرة النهشلي أخباره وما بقي من شعره / جمع وتحقيق:هاشم طة شلاش / مجلة المورد /

مج١٠ / ع٢ لسنة ١٩٨٢.

- عشرة شعراء مقلّون / صنعة:د.حاتم الضامن / بغداد / مطابع وزارة التعليم العالي / ١٩٩٠.

- علم النفس العام / د.حسين ياسين طه / الموصل / دار الحكمة للطباعة والنشر / ١٩٩٠.

- العين / الفراهيدي:أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد(ت١٧٥هج) / تحقيق:مهدي المخزومي وإبراهيم

السامرائي / بغداد / دار الرشيد للنشر / ١٩٨١.

- الفروسية في الشعر الجاهلي / القيسي:د.نوري حمودي / ط٢ / بيروت / عالم الكتب / ١٩٨٤.

- القاموس المحيط / الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هج) /

بيروت / دار الفكر /

١٩٨٣.

- كتاب أيام العرب قبل الإسلام لأبي عبيدة(ت٢٠٩هج) / د.عادل جاسم البياتي / بغداد / دار

الجاحظ للطباعة والنشر / ١٩٧٦.

- لسان العرب / إبن منظور:جمال الدين محمد بن مكرم(ت٧١١هج) / إعداد وتصنيف: يوسف خياط

ونديم مرعشلي / بيروت / دار لسان العرب / د.ت.

- مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي / ابتسام مرهون الصفار / بغداد / مطبعة الإرشاد / ١٩٦٨.

- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم/ الآمدي:أبو

القاسم الحسن بن بشر(ت٣٧٠هج) / تحقيق:ف.كرنكو / ط١ / بيروت / دار الجيل / ١٩٩١.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر / المسعودي:أبو الحسن علي بن

الحسين(ت٣٤٦هج)/ القاهرة/

مطبعة بولاق / ١٢٨٣هج.

- المستقصى من أمثال العرب / الزمخشري:أبو القاسم جار الله محمود بن عمر(ت٥٣٨هج) /

بيروت / دار الكتب العلمية / ١٩٧٧.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير / الفيومي:أبو العباس أحمد بن محمد بن علي(ت٧٧٠هج) /

بيروت / المكتبة العلمية / د ت.

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع / البكري(ت٤٨٧هج) / تحقيق: مصطفى السقا/

القاهرة / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٩٤٥.

- المفضليات / المفضل بن محمد الضبي(ت١٧٨هج) / تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد

هارون / ط٣ / القاهرة / دار المعارف / ١٩٦٤.

- مقاييس اللغة / إبن فارس:أبو الحسين أحمد بن فارس بن كريا(ت٣٩٥هج) /

تحقيق:عبد السلام محمد

هارون / بيروت / دار الفكر / ١٩٧٩.